الفصل السابع

الأَزَماتُ التجاريَّةُ

ماهيات الأزمات التجارية – علل الأزمات العامة من تجارية وزراعية — الأدوية الموصوفة للأزمات الاقتصادية — النتائج النافعة التي تتأتى أحياناً من تلك الأزمات

ماهيات الأزمات التجارية

تَطرأُ في بعضِ الآونةِ على الزّراعةِ والتجارة والصناعةِ طوارئُ، يضطربُ لها الإنتاجُ ويقفُ بعضَ الوقوفِ: فَيَشكو الفَلَّاحونَ من كَسادِ محصولاتِهم، أو التجارُ والصنَّاعُ من ازدحام مخازنهم بما فيها من البضائعِ، وتَعذُّرِ نَفَاقها حتى بالبَخْسِ؛ ويقِلُّ عندئذٍ العملُ في المصانعِ وقد يُقْفَلُ بعضُها، فمن أَيْنَ مَبْعَثُ تلك الحوادثِ الأَليمةِ التي تُنيخُ بِكَلَاكلها على صُدُورِ الناسِ ؟

الأَزَماتُ ، تجاريّةً كانت أَم صناعيَّةً أم زراعيَّةً ، قد تكون جُزْئيَّةً أو عارضةً، وقد تكون عامَّةً، وأحياناً

مَسكونيَّةً . فإذا كانت بعضيَّةً، فعِلَّتُها — وقلَّما يُصادفُها الشُّذُوذ — سهلةُ الكشفِ

لمَّا نَشِبَتْ حربُ الفصال بين جنوب الولاياتِ المتحدةِ وشمالِها ، من سنة ١٨٦٠ إلى سنة ١٨٦٥ ، حاقَتْ بمعاهدِ العملِ القطنيِّ فى إنجلترا، وفى سائرِ القارَّةِ الأُوربيَّةِ، ضائقةٌ حالكةٌ : لأنَّ أوربا كانت تمتارُ قطنها كلَّهُ من الولاياتِ المتحدةِ . فما شَبَّتْ الحربُ وحُصِرَت الشواطئُ الأمريكيةُ وتَمَشَّتْ الجائحةُ فى المزارعِ وامتُنِعَ التصديرُ ، حتى اضطُرَّ أربابُ مَعامِلِ القطنِ فى فرنسا وإنجلترا وألمانيا إلى تقليلِ ما يستصنِعونهُ منهُ بل اضطُرَّ أُناسٌ منهم إلى إقفالِ مَعاهدِهم وتسريحِ فَعَلَتِهم . أمَّا مَصانعُ الصوفِ والكَتَّانِ فَنَشِطَتْ ونَمَا إنتاجُها

ثمَّ لو شِئْنا لَعَدَّدنا حوادثَ جَمَّةً وقعت فيها الأزماتُ التجاريَّةُ أو الزِّراعيَّةُ ولم تُجاوِزْ مَواقِعَها ؛ غيرَ أننا نكتفى بذكرِ واحدةٍ منها ؛ هى الكارثةُ التى أصابت جنوبَ فرنسا وتُعرَفُ بكارثةِ « الفِيلُكْسِرا » : هذه الآفةُ سطت منذُ

سنة ١٨٦٧ على الكروم الفرنسيّة ، ثمّ اشتدّت من عام ١٨٧٢ إلى عام ١٨٧٣ ، اشتداداً فادحاً دمّر تلك الكرومَ بسُرعةٍ رائعةٍ ؛ وكانَ ذلك التّخريبُ مِن عمَلِ حشَرةٍ مجهولةٍ إلى ذلك الوقت ، منشؤها من أمريكا ، والاسمُ الذى عُرفت بهِ هو « الفيلكسرا »

فلماً حلَّ ذلك الخطْبُ بالمقاطعاتِ الكرْميّةِ ، وتُربتها بَعليّةٌ [1] جافّةٌ لا تُستنبَتُ أصاحٍ ولا أربحَ من الأعنابِ ، أعْسَرَ الأهلونَ جِدَّ الإعسارِ ، بعد أن كانوا فى رخاءٍ ويسارٍ وهبطت قيمةُ الأرضِ إلى نِصفِها أو إلى ثلاثةِ أرباعِها أو إلى ما دونَ ذلك ، ونزَلت الأجورُ إلى الثُّلثَيْنِ أو إلى النِّصفِ ، واضطرَّ سَوادٌ من الكرّامين إلى الهجْرةِ ، فبعضُهم رَحَلَ إلى المقاطعاتِ المجاورَةِ ، وبعضُهم نزَحَ إلى الجزائرِ

هذه الأزماتُ البعضيّةُ أو المَحليّةُ ضروب من الرزايا الطبيعيةِ التى لا يتسنّى اتّقاؤها ؛ وممّا يزيدُها خطراً تجزُّؤُ العملِ تبعاً للمواطنِ (أُنظر صحيفة ١٣٣ ج ١) وغُلُوُّ ذلك

---

(١) البَعْلُ من الأرض . ما سقتهُ السماء

التَّجزُّؤ فى المجتمعاتِ الشاهدةِ : على أنها جزئيةٌ تُؤدِّى فى مقابلةِ الخيْراتِ التى تُستدرُّ من تجزُّؤِ العملِ

ليست تلك الأزماتُ الجزْئيَّةُ أو الموْضعيَّةُ بكُلِّ الأزماتِ، بل قد تحدثُ كوارثُ صناعيةٌ أو تجاريةٌ تحيطُ، فى آنٍ ، بجميع الصناعاتِ فى العالَم كافَّةً ؛ ومن هذهِ الكوارثِ ما وقع بين سنتَيْ ١٨٨٢ و ١٨٨٦ ثمَّ بين سنتَيْ ١٨٨٩ و ١٨٩١ ، فكانَ أطولَ محْنةٍ أُصيبت بها الدّيارُ الممدَّنةُ ؛ ونزَلت بعد ذلك من سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩٠٩ نازلةٌ كانت أخفَّ وطأةً من تلك

عللُ الأزمات التجارية من زراعيةٍ وصناعيةٍ

يَعزُو الجمهورُ الأزماتِ إلى الإفراطِ فى الإنتاجِ من كلِّ شىءٍ : من القمحِ ، واللحمِ ، والحديدِ ، والملْبَسِ ، والنِّعَالِ ، والمبانى الخ

زعمٌ مغلوط وإن بَدَا عليهِ ملْمَحٌ للصواب

لم تَبلُغ الإنسانيَّةُ مبلغًا من الثَّراءِ يزيدُ معهُ إنتاجُها

على حاجاتِها التى لا تزالُ مُتعَدّدةً ؛ فإذا شكت كثرةَ القمح ، واللحم ، والملابس ، والنِّعال ، والبُيوت ، فخَطأٌ لأنَّ السوادَ العظيمَ من أبنائِها فى أرجاءِ المعمورِ ، — دَع الأقاليمَ ذات السَّعةِ — لم يحصلوا حتى الساعةِ على الخبزِ الأبيضِ ، ولا على اللحمِ ، ومنهم الحُفاة ، ومنهم الذين لا جُنَّةَ لهم أو يسكنونَ أردأَ المَساكنِ

كلاَّ لم تَصِلِ الإنسانيَّةُ ، وكأنّى بها لَنْ تَصِلَ ، إلى الرتبةِ التى تَتفاقَمُ عليها المنتَجاتُ المُزْجاةُ بين يَدَيها ؛ فلا معنى للقَوْلِ بالإفراطِ العامّ فى الإنتاجِ

غيرَ أنَّ هذا لا يُنافى تَجاوُزَ الحدِّ فى إيجادِ بعضِ الأصنافِ الخاصَّةِ ، ولاسيَّما حيث لا تُراعَى النِّسبةُ بين المقاديرِ المعروضةِ من البضاعةِ ، والعاداتِ التى عليها الأهلونَ ؛ كما أنهُ لا يُنافى أيضاً أنَّ بعضَ الأشياءِ التى تُزْجى للجُمهورِ ويرغبُ فيها قد يمنعهُ من شِرائِها غلاءُ أثمانِها على الطبقاتِ غيرِ الموسرةِ من المستهلكين

أمَّا الاصنافُ التى تربو على الحاجاتِ مَهْما نَزُرَ إنتاجُها

فَقَلَائِلُ : منها ما يكون استنفادُهُ خاصاً بأفرادٍ وغيرَ قابلٍ للامتدادِ كالنُّعوشِ والمُهودِ مثلاً ؛ فإنهُ يُولَدُ مِنَ الناس فى فرنسا ويموتُ مِنَ الناس مَنْ تتراوحُ عِدَّتُهم بين السبعمائة والخمسين وبين الثمانمائة من الآلافِ فى كلِّ عامٍ ، فلو صُنعَ فى كلِّ حَوْلٍ مليونا مَهْدٍ ومليونا نَعْشٍ ولم يتسنَّ تصديرُها لنيفَتْ على دواعى الحاجةِ ولَمَا وُجِدَ مُقْتَنٍ يقتنى فُضولَها بأيِّ ثمنٍ كان

وقد يقعُ الإفراطُ أيضاً فى إنتاجِ بعضِ الأدواتِ والآلاتِ التى لا يَسَعَ الأقوامَ استعمالُ ما لا يُحصى منها : كالإبَرِ ، والدبابيسِ ، والمعَاوِلِ ، والمَجَارِفِ ، والكارَّات ومقطورات المسالك الحديديَّةِ أو قَواطِرِها

غيرَ أنهُ لم يُعرَفْ إلى الآن حَدٌّ لما لم يستهلك من الأشياءِ المذكورةِ آخراً كما عُرِفَ حدٌّ للأشياء التى ذكرناها قَبْلَها

بَيْدَ أنهُ لا يَحدثُ إفراطٌ — أو يَحدثُ فلا يكون عاماً ولا دائماً — فى إنتاجِ البضائع التى تتعدَّدُ وجوهُ استخدامِها كالأنسجة التى تُتَّخَذُ منها الأكسِيَةُ ، والنَّمَارِقُ ، والأستارُ ،

وأغطيةُ الجُذرانِ ؛ وكالحديدِ الذى يُطبَعُ على ألفِ شكلٍ للخِدَمِ المتنوّعةِ ؛ وكالقمح واللحم اللذَينِ ما زالَ الأكثرون لا يُصيبونَ منهما ؛ وكالدُورِ التى حُرِمها جماهيرُ من الخَلْقِ يَقْطُنون مُتكدّسين فى قراراتٍ وَبالةٍ (١)

إذا كانت الحالةُ هذهِ، فإنما يحدُث عدمُ تَناسُبٍ بين الثمنِ المتكلَّف على الشىء ، الذى لم يَحصلْ عليهِ السوادُ الأعظمُ ، وبين ما قُيّضَ لِجُمهورٍ آخرينَ من وَسائلِ اقتنائهِ

على أنهُ قد يطرأُ على فِئةٍ من الأَنامِ أن تتعوَّدَ مُتدرّجةً اختيارَ ما هو أجملُ وأصلَحُ لهـا من الكِساءِ والفُرُش والمسكنِ ؛ فإذا أُفرِطَ فى الصُنْعِ من هذهِ الأَشياءِ فهو غُلُوٌّ فى الظاهرِ أكثرُ مماَّ هو فى الحقيقةِ ، وأثَرُهُ زائلٌ

أمَّا العِلَّتان اللَّتان تَجلبان الأَزماتِ التجاريَّةَ العامَّةَ فَهُما : من جهةٍ ، التَّمادى فى المُصافَقةِ (٢) ، والإفراطُ فى الإنساءِ (٣) ؛ ومن جهةٍ أُخرى ، طُروءُ الآياتِ الجديدةِ

---

(١) وَبَلَ المرعى وَبالةً وَخَمَ (٢) المصافقة : المضاربة

(٣) الإنساء الائتمان

بغتةً في الصناعةِ ، أو في تسهيلِ ذرائعِ النقلِ

السببُ الأوّلُ يحدثُ في العهودِ الطيّبةِ ، عهودِ رواجِ الأسواقِ ومُوافقةِ الأعمالِ : إذ تعظُمُ أرباحُ المستصنعين وتتهيّأُ النفوسُ للأوهامِ — كما هي شيمةُ الأكثرين — فيَهُبُّ الطامعُونَ من كلِّ جانبٍ ، مُقبلينَ برؤوس أموالهم لِتَثميرها في مشروعاتٍ من كلِّ ضربٍ يُشيّدُونها ، أو طارقينَ أبوابَ المناسئِ للاقتراضِ ، وما من عُدّةٍ يعتدُّونها للوفاء سوى الأرباح التي يتخيّلونها

إذ ذاك يتّسعُ نطاقُ الائتمان إلى غاياتهِ ؛ فيَدينُ مَنْ يَدينُ بلا تدبُّرٍ ، ويستدينُ مَنْ يستدينُ بلا تبصُّرٍ ؛ حتى إذا وقعت واقعةٌ غيرُ موافِقةٍ ، مهْما صغُرَ خطبُها ، مرّت بتلك المشروعاتِ المتقلقلةِ فهدمتْها هدْمَ النُّسيْمةِ صروحَ الأوراقِ

أمّا السببُ الثاني ؛ وهو الأجلُّ ، فطروءُ الآياتِ الفُجائيّةِ التي يجيءُ بها التقدُّمُ ، فتُغيّرُ أُصولَ الصناعاتِ وتتناولُ فُروعَها : هذهِ ، وما يدخلُ في بابِها من تحسُّنِ

ذرائعِ النقلِ ، تُهَيِّئُ ميادينَ جديدةً للمزاحمةِ في الصنفِ وفي الثمنِ، وتقعُ مَوْقعَ الدَّهشةِ والذُّهولِ من نُفوسِ أكثرِ المنتجينَ ؛ فَتُفْسِدُ عليهم أصَحَّ حُسْباناتِهم، وتُبْطِلُ أحكامَ تقديراتِهم بما تُرسِلهُ إلى السُّوقِ ، من حيث لم يسبِقْ بهِ شُعورٌ، من المستحدَثاتِ الغزيرةِ المقاديرِ، الزَّهيدةِ الأثمانِ مِمَّا يتأتَّى عنهُ اضطرابٌ وقتيٌّ قد يطولُ أَمَدُهُ إلى سنين

عندئذٍ يتعيَّنُ على أولئكِ المنتجينَ، أن يَعتدُوا إعتاداً جديداً ويَخلُقوا أساليبَ غيرَ مألوفةٍ للنجاةِ من هذه الطارئةِ ولا يَتِمُّ لهم ذلك بلا عناءٍ ولا ألَمٍ

مَثَلُ الأزماتِ التجاريَّةِ وما ينالُ المجتمعَ منها في حالةٍ كالتي وَصفناهـا ، مَثَلُ الأعراضِ تَنْتابُ اليافِعينَ إبَّانَ البُلوغِ، أو الأمراضِ تُصيبُ الأطفالَ في أسنانِهم : فيها ما فيها من الأوْجاعِ ، ولكنَّها تكادُ تكون ضروريَّةً ، وربما كانت الجزيةُ هي التي يستأديها النجاحُ الفُجائيُّ العظيم

لَمَحَ بعضُ المُستقْرِين للأزماتِ الناجمةِ عن الإفراطِ في النسيئةِ أو المجازَفةِ في المصافقةِ — والمصافقةُ ليست

بذاتها شرًّا، بل هي قوّةٌ نافعةٌ مُعرَّضةٌ لآفاتِ الاندفاعِ —
أنَّ تلك الأزماتِ ذاتُ مَعادٍ دَوْريٍّ، يكاد يكون موقوتًا
بكلّ عشرِ سنين أو اثنتي عشْرَةَ سنةً: فتأويلُ هذا المَعادِ
أنَّ العِبَرَ التي تَحُلُّ بالآباء قلَّما تنفعُ الأبناءَ، وأنَّ عَهْدَ اليسارِ
يُنْسي عِظاتِ الماضي ويبعثُ على الغُرورِ

على أنَّ الأزماتِ التي يجيءُ بها الإِبداعُ[1] الصناعيُّ
بغتةً، ليست أَوَّابةً[2] في دَورٍ بعدَ دَورٍ على اطّرادٍ؛ بل
بين مَراجعِها مسافاتٌ أَوسعُ من تلك. وإِنما هي أوَّابةٌ:
لأنَّ النجاحَ الزّراعيَّ والتحويليَّ لا يتمشّى على وتيرةٍ واحدةٍ
ولا يستمر بلا انقطاعٍ، فربما صادَفَتْهُ أَزْمِنَةٌ أغربَ فيها
وأَذْهَبَ[3] فهزَّ العالَمَ بأسرهِ هِزَّةَ الحُمّى وحرّكَ سَواكِنَهُ؛
وربما صادفتهُ أَزمِنةٌ أُخرى كان فيها هادئًا مُستكينًا. أمَّا
تلك الأَيَّامُ الاولى، فتكونُ مُحجَّلَةً بالمَجْدِ؛ وأمَّا هذه
الأَيَّامُ الثانيةُ فَلعلَّها تكون أَحفَلَ بالسَّعْدِ

---

(١) الإِبداع التحسين والإِتقان (٢) أوَّابة: عوَّادة

(٣) أغرب وأذهب: أتى بالعَجَبَ

أدوية الأزماتِ الاقتصادية

ليسَ فى الأَدويةِ ما تُستأصلُ بهِ شأفةُ الأَزماتِ الاقتصاديَّةِ . ومن الغُرورِ الظنُّ بأنها تُتَّقَى . إِذ لو أُريدَ تَدَارُكُها لَوَجَبَ أن يُزالَ الوهمُ من نفوسِ الأَجيالِ الجديدةِ إِزالةً تَعْصِمَها من الاندفاعِ فى المجازَفاتِ والإِفحاشِ فى الاقتراضِ ؛ ولَوَجَبَ كذلك أن يُساقَ التقدُّمُ البشريُّ فى مَساوِقَ أشبهَ بالتُّرَعِ ، يجرى فيها جَرْيًا بطيئًا مُتماثلاً ، بدلاً من تركهِ يثورُ فى بعضِ الأَحايينِ ثَوَرَانَ جبالِ النارِ ، ثمَّ يستقرُّ فيهدأُ ، وتَعْقُبُهُ أَوقاتُ سكونٍ واسترخاءٍ

تلك أُمنيَّةٌ ليسَ تحقيقُها فى طَوْقِ الإِنسانِ ، ولا فى وُسعِ المجتمعِ

عندما تحدثُ الأَزمةُ الاقتصاديَّةُ المحليَّةُ ، كأَزمةِ القطنِ ، من سنة ١٨٦٠ إِلى سنة ١٨٦٥ ، أو كأَزمةِ «الفيلكسرا» فى جنوبِ فرنسا ؛ يُحتَملُ تَلافى بعضِ آفاتِها : بِمِثلِ الشُّروعِ — عن تَدَبُّرٍ وَرَوِيَّةٍ — فى إِقامةِ طائفةٍ

من الأعمالِ العامَّةِ فى الأرجاءِ المُصابةِ، وبمثلِ تمهيدِ السُّبُلِ للمُهاجَرةِ فى الحدِّ الذى تُجيزُهُ الحِكمةُ: بمعنى أن لا يُصْرفَ النظرُ عن الضررِ الجسيمِ الذى يَلْحَقُ بالبلادِ من التَّوَسُّعِ فى ذلك التَّرْحيلِ حينَ يعودُ الرَّخاءُ وتُعوِزُ الأيدى العاملةُ

ومن أفضلِ الذَّرائعِ لتخفيفِ وَيلاتِ هذه الأزماتِ أن لا يألوَ الأفرادُ فى أيامِ الخَفْضِ عن التبصُّرِ والادّخارِ بحيثُ يكونان لهم خيرَ معوانٍ على أيامِ البأساءِ

لا كذلك الأزماتُ التجاريَّةُ العامَّةُ التى تُصيبُ بلداً أو تَشمَلُ الصناعاتِ بأسرِها، فإنَّ المروِّحاتِ لها قلَّما تتيسَّرُ، ولا حيلةَ معَها للحكومةِ سوى أن تَلزمَ الحَذَرَ، وتُنفِقَ عن قَصْدٍ، لِتَستعيدَ الثِّقةَ وتُؤَمِّنَ الخائفين

فإذا افْتَتَحَتْ معاملَ وطنيَّةً، كما يُشيرُ بذلك فريقٌ من الناسِ، فإنما تَزيدُ الكارثةَ خُطورةً وتُطيلُ أيامَها على نقيضِ ما يتوهَّمُونَ: لأنها بفعلِها ذلكَ تُمِدُّ الأوهامَ وتُفسحُ المجالَ للمَطامعِ التى تولَّدَت منها الكارثةُ

ولَدَى هذه المناسبةِ يَصحُّ استدراكُ أنَّ الحكومةَ،

فى كثيرٍ من الأمرِ، تُؤَثِّرُ تأثيراً سيئاً فى الصناعةِ : بمَدّها — فى عَهْدِ الإقبالِ — مسالكَ حديديَّةً وراءَ الحاجةِ ، واستحداثِها أعمالاً عامَّةً لا تَقِفُ معها عند حَدٍّ ، فتُفْسِدُ الأَحوالَ الطبيعيةَ على الصناعاتِ ، وتُغيِّرُ الرَّوابطَ القانونيَّةَ بين الأَرباحِ والأُجورِ؛ ثمَّ تُجارى ثَوَرانَ المطامعِ ، فتَخْلُقُ مَعاهِدَ لاتدعو إليها الضروراتُ ، وتُغْلى مُكافآتِ الأَيدى العاملةِ إغلاءً فاحِشاً أو سابقاً لأوانهِ

على أنهُ أَجْدَرُ بالحكومةِ ، إذا أرادت التداخُلَ فى شأنِ الصناعةِ ، كأَنْ تُجيزَها [1] أو تدفعَها إلى الأمامِ ، أو تُعينَها بما تُوصيها بهِ من مَطالبِها ، أن تَلْزَمَ جانبَ الحِكمةِ والحَيْطةِ

النتائج النافعة التى قد تتأتَّى من الأزمات الاقتصادية

للأزماتِ الاقتصاديَّةِ ، برَغم ما تَجرُّهُ من ضُروبِ الأذى ، نتيجةٌ نافعةٌ : وهى أنَّ المنتجينَ ، بعدَ مُرورِ

---

(١) تجيزها : تعطيها الجوائز

النازلةِ يَستَجمُّونَ [1] ويُراجِعُونَ ضَمائِرَهم مِنَ الجهةِ الاقتصاديَّةِ ، فَيَنْظُرونَ فى تقويمِ ما اعوجَّ من نِظامِهم ويسُدُّون مَسارِبَ الأرباحِ من ثُلَماتِهِ ، ويتخيَّرونَ طرائقَ أصلحَ من الطرائقِ الأُولى للعمل ، حتى يُفْضُوا إلى جَعل أثمانِ التكلفةِ أقلَّ مما كانت قبلاً

حينئذٍ ترجعُ الأُجورُ والمَكاسِبُ إلى حَدٍّ معقولٍ ، وتتجدَّدُ فى النفوسِ عاداتُ الجِدِّ المطَّرِد ؛ وتتشدَّدُ النسيئةُ فتَعُودُ إلى التَّبصُّرِ والتدبُّرِ ؛ ويَنتُجُ من كلِّ هذه ، بعد انصرافِ الجائحةِ ، أن تروجَ البضائعُ ، وتجدَّ طبقاتٌ من المستنفدين ، ويتوطَّدَ التحسينُ الذى تمَّ وكان يُظَنُّ مَبْعَثَ الاضطرابِ وتَنهَضَ الإنسانيَّةُ ، بعد مُعاناةِ ما تُعانيهِ من ذلك الضَّيْمِ — طالَ أم قَصُرَ — واجدةً بين يَدَيْها فَوْقَ ما كانت تجِدُهُ ، مِن وَسائلِ الوفاءِ بِحاجاتِها وقَضاءِ مآرِبِها

---

(١) أى يجمعون أنفسهم للتفكير